فصول من الحرب البونية الأولى 264-241 ق.م.
معركة ميلس البحرية (261 ق.م.)
وحملة ريغولوس على قرطاج (256 ق.م.)

د. عقون محمد العربي
جامعة منتوري . قسنطينة

ملخص

تهدف هذه المقاربة في الأساس إلى دراسة واقعتين من وقائع الحرب البونية الأولى، وهما الواقعتان اللتان شكّلتا منعطفا حاسما تسبب في اختلال التوازن بين طرفي الصراع : قرطاج وروما لصالح هذه الأخيرة.

يتعلق الأمر أولا بالمعركة البحرية التي دارت في عرض ميلس (صقلية) سنة 261 ق.م. وهي المعركة التي ميّزت بداية ظهور القوة البحرية الرومانية. لقد أفسح الانتصار الروماني المجال أمام قادة جيوش روما لغزو قرطاج في عقر دارها.

من بين هؤلاء مغامر اسمه ريغولوس (ماركوس أتيليوس) كان أول قائد روماني يغزو قرطاج على غرار سلفه الإغريقي أغاثوكليس، هذا القائد احتل مكانة بارزة في التاريخ العسكري الروماني فضلا عن أنّه أصبح رمزا للفضائل الرومانية وسيظل المثل الأعلى لكل جندي روماني.

من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- لا شك في أنّ قرطاج كانت قوة تجارية ولكن على الصعيد العسكري والاستراتيجي كانت دائما ضعيفة بسبب الذهنية التجارية المتحكمة في طبقة القلة الحاكمة.
- لم تكن لقرطاج إمكانيات "ديمغرافية" لتجنيد وتكوين جيش قوي ودائم باستطاعته الوقوف في وجه الأطماع الرومانية.
- **خطأ قرطاج إذن، هو أنها اعتمدت صيغة التجنيد المؤقت، والجند المأجور، وعلى الرغم من أن غالبية جيشها كان دائما من العنصر الأفريقي**، إلاّ أنّ هذا العنصر الأساسي ظل أجنبيا في عيون حكام قرطاج.

Résumé

L'objectif de cette approche est d'étudier essentiellement deux épisodes de la première guerre punique. Ces deux épisodes formaient un tournant décisif qui a causé le déséquilibre entre les deux parties au conflit : Carthage et Rome, pour le bénéfice de cette dernière.

Il s'agit de la bataille navale qui a eu lieu au large de Myles (Sicile) vers 261 av. J.C. c'est la bataille qui a marqué le début de l'émergence de la force navale romaine. La victoire romaine laissa le champ libre aux commandants de guerres de Rome pour envahir Carthage dans son propre sol.

Parmi ces commandants, un aventurier nommé Regulus (Marcus Atilius), a été le premier commandant romain qui a envahit Carthage a l'instar de son prédécesseur grec Agathocle, ce Regulus Occupa une place de premier plan dans l'histoire militaire romaine, y compris serait devenue le symbole des vertus romaines (*virtus Romana*) et aussi l'idéal pour chaque soldat romain.

Les plus importants résultats de l'étude sont :

- Certes, Carthage était une force commerciale, mais sur le plan militaire et stratégique resta toujours faible en raison de la mentalité mercantile de la classe oligarchique dirigeante.
- Certes, Carthage n'avait pas la possibilité "démographique" de recruter et former une armée forte et capable de se tenir en face de la cupidité romaine.
- Donc l'erreur de Carthage, c'est qu'elle a adopté, une formule de recrutement temporaire, mais aussi une armée de mercenaires et bien que la majorité de son armée toujours était constitué de l'élément africain. Malgré cela, cet élément fondamental, a été, toujours, considéré comme un élément d'étrangers, aux yeux des dirigeants carthaginois.

مقدمة

كان نمو مصالح قرطاج التجارية سببا في ظهور أطماع في ثرائها تجاوزت منافسيها التقليديين وهم الإغريق إلى منافس جديد ناشئ هو روما. هذه الأخيرة تختلف عن دويلات المدن الإغريقية في أنّها دولة قامت على أساس القوة العسكرية وذات نزعة توسّعية، وستنشب الحرب بين الطرفين وتمتد على عشرات السنين عبر حلقات متتالية، النصر فيها سجال والغلبة في النهاية لروما،تلكم هي الحرب البونية التي بدأت سنة 264 في مسين شمال شرقي صقلية وانتهت بزوال قرطاج سنة 146 ق.م.

كان على قرطاج لمواجهة أطماع منافسيها أن تنمّي قوّتها البحرية من سفن ومعدّات وجند...، وكانت قد وجدت في الأترسك خلال القرن السادس ق.م. حليفا استراتيجيا ضدّ الإغريق في شرقي صقلية[1]، وكان لقرطاج حينها أسطول يتكوّن من60 مركبا(Navires)،و60 سفينة كبيرة[2](Escadres) و20 سفينة صغيرة (Vaisseaux)[3].وحسب ديودور فإنّ الحملة البحرية التي قادها هاميلكار ضدّ الإغريق في صقلّية سنة 480 ق.م. كانت تتكوّن من200 سفينة حربية، وهو رقم يمثّل احتمالا حجم القوة البحرية القرطاجية، دون الأخذ في الاعتبار السفن المعدّة لنقل العتاد والمؤن والوحدات الصغيرة، أمّا أبيان فسجّل أنّ عدد قطع الأسطول الحربي البوني

1 Hérodote, I, 166.

2 والملاحظ أنّ رقم 60 يمثّل الوحدة في النظام الستّيني الذي لا يزال معمولا به في تقسيم الساعة كما هو معروف إلى 60 دقيقة والدقيقة إلى 60 ثانية .

3 - Diodore de Sicile, XIII , 54, I.

في منتصف القرن الثاني ق.م. (أي خلال الحرب البونية الثالثة) بلغ 220 قطعة[4].

أهمّ فصول الحرب البونية الأولى :

أ- معركة ميلس البحرية 261 ق.م.

بزوال الملكية في روما وقيام النظام الجمهوري الأرستقراطي بها، تغيّرت السياسة وأصبحت روما تتطلّع نحو التوسُّع . وطبيعي أن تصطدم بقرطاج التي كانت تسيطر على جزر الحوض الغربي للمتوسّط، وأولها الجزيرة الكبرى صقلية، التي لا يفصلها عن إيطاليا إلاّ مضيق مسين الذي يمكن اجتيازه سباحةً. وبعد أن أكمل الرومان سيطرتهم على شبه الجزيرة الإيطالية وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام قرطاج التي قضت على قوّة الإغريق وسطوتهم بالجزيرة . فبدأ الصراع ودقّت طبول الحرب البونية الأولى سنة 264ق.م من أجل السيطرة على مدينة مسين المتحكّمة بمينائها في المضيق الذي يحمل نفس الاسم وهي المعركة التي انهزم فيها الجيش القرطاجي(5)، وكان لابدّ من ردّ الضربة التي تلقّتها قرطاج وكان عرض البحر شمالي صقلية على مقربة من ميناء ميلس ميدانا لأكبر معركة بحرية في التاريخ القديم ، وهي المعركة التي انتهت بتحطيم القوّة البحرية القرطاجية وحسب رواية لبوليب(6) فإنّ الرومان كانوا قد استولوا على سفينة

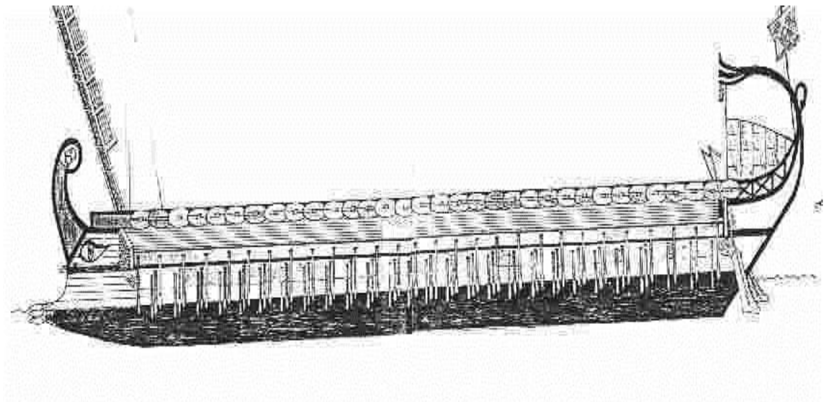
---

4 - Appien, Libyca , 96

5 كان الجيش القرطاجي تحت قيادة كبير جنرالات قرطاج حانون ، وكان قد عقد حلفا مع الإغريق ، وبعد الهزيمة حمّله مجلس شيوخ قرطاج مسؤولية ما حدث متهما إياه بالتقصير والخيانة فأعدم صلبا. أنظر : صفر (أحمد) ، مدنية المغرب العربي في التاريخ ، دار بوسلامة للنشر ، تونس 1959 ، ص 197.

6 - Polybe, I, 20 , 15.

خماسية قرطاجية (**أنظر الشكل1**) في مضيق مسينا واتّخذوها نموذجا للسفن التي صنّعوا منها قطع أسطولهم الذي انتصروا به في هذه المعركة ، لأنّهم أضافوا لها تقنية جديدة وهي المعروفة بالغراب (Corbeau) ، وقد اعتبر بريسون(7) هذه الرواية غير موثوق بها لأنّ الرومان قبل ذلك بنصف قرن كانوا قد استعانوا بخبرة صنّاع تارنت (Tarente) المهرة ولم يكونوا في حاجة إلى تقليد الصناعة القرطاجية،والحال أنّ استنتاج بريسون ضعيف لأنّ الخماسية القرطاجية كما يقول سارج لانصال[8]كانت آنذاك سيّدة البحر وكان الرومان في أمسّ الحاجة إلى تصنيع نماذج منها، ويجرّنا الحديث عن الخماسية البونية إلى معرفة سرّ تفوُّق تلك السفينة، فمن حيث الحمولة كانت تتّسع لنقل 300 شخص، ولها خمسة صفوف من الجذّافين، أمّا الثلاثية الكلاسيكية فلا يتعدّى طولها 35 م وعرضها **5,50** م. وتحتوي على ثلاث طبقات للتجديف(9).



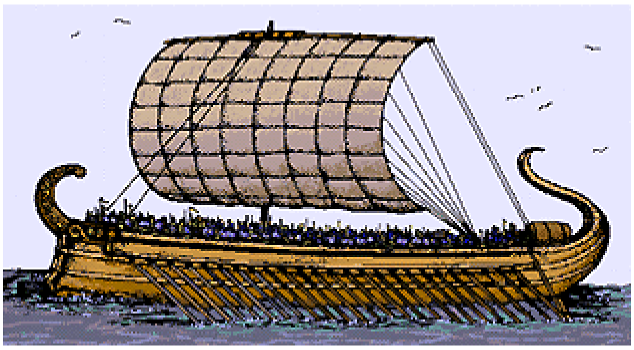
(ش 1) الخماسية القرطاجية أرقى ما وصلت إليه صناعة السفن في عهدها

7 - Brisson (J. P.), Carthage ou Rome, éditions Fayard, paris 1973, p. 48.

8 - Lancel (S.), Carthage, Cérès éditions, paris 1999, p. 178.

9 - Aristophane, Grounouilles, V , 1074.

إنّ ما حدث في مضيق مسينا يمكن أن نسمّيه بلغة العصر جوسسة صناعية وأنّ القرطاجيين ذهبوا ضحية تلك الجوسسة[10] فقد نجحت روما في تقليد الصناعة البونية ثمّ تفوّقت في بضع سنوات في مجال صناعي كان خاصّا بقرطاج، وما أضافه الرومان هو نقل **تاكتيك الحرب البرّية التي برعوا فيها إلى الحرب البحرية** وهذا بفضل تزويدهم لسفنهم بأداة للقبض على سفينة معادية ومهاجمتها تسمّى: الغراب (Corbeau) وهي الأداة التي سمحت للقنصل دويليوس (Duilius) بتحقيق النصر في معركة ميلس (Myles)[11]، وقد وصف بوليب هذه الأداة قائلا أنّها شبيهة برأس غراب تثبَّت في مقدّمة السفينة كالعمود ، وعند الاقتراب من سفينة العدو تسوّى أفقيا بفضل مرونتها وثقل رأسها الحديدي على شكل منقار غراب فتمسك بسفينة العدو وتشلّ حركتها وتتحوّل إلى معبر (Passerelle) وحينها يكون مشاة البحرية قد اقتحموا سفينة العدو وهاجموا بحارتها وقضوا عليهم ،وهي الخطّة التي تفوّق بها الرومان فحقّقوا النصر على القرطاجيين في ميلس بمضيق مسينا حوالي 260 أو 261 ق.م. خلال الحرب البونية الأولى (أنظر أدناه الشكل 3).



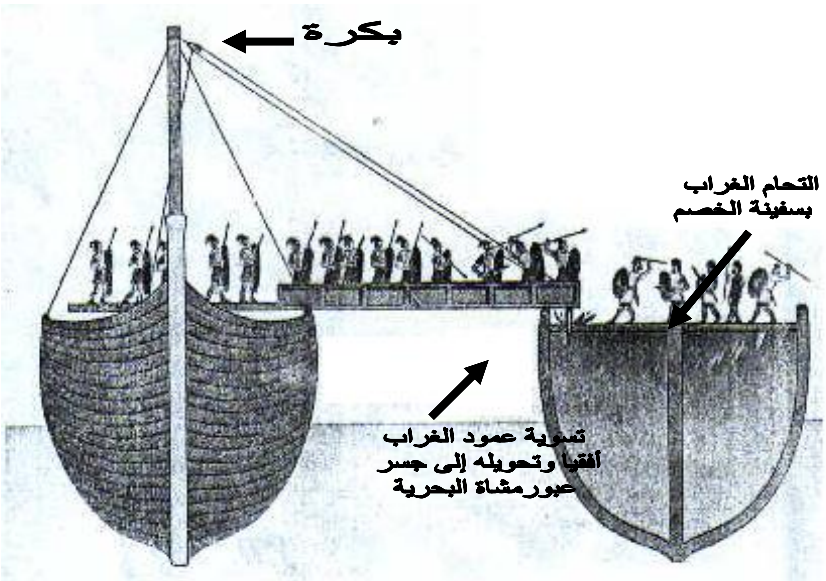
(ش 2) سفينة رومانية (Galère)

---

10 - Lancel (S.), op. cit. p . 186.

11 - Polybe, I, 22, 4.

في هذا السياق تنبغي الإشارة إلى إحياء هذا الشكل من الخطط الحربية على يد القوّة الأميركية بحيث أصبح الجميع يردّد الاصطلاح الأميركي :مشاة البحرية(Marines) دون معرفة الخلفية التاريخية لهذا الشكل من الفرق الحربية التي تأسّست على يد روما في بدايات بروز نزعتها التوسّعية والتي قامت على أساس دمج تاكتيك الحرب البرّية بالحرب البحرية .



(ش 3) "الغراب" الذي أضافه الرومان ومزجوا به الحرب البرية بالحرب البحرية فانتصروا على القرطاجيين

ب- حملة ريغولوس على قرطاج 256-255 ق.م.

أظهرت روما جرأة كبيرة بعد انتصارها الباهر على البحرية القرطاجية في ميلس (Myles)، وقرّر قادتها غزو قرطاج في عقر دارها، ويبدو أنّ

القنصل ريغولوس (Régulus) كان أبرز المتحمّسين للإقدام على هذه الخطوة ، ولذلك سيكون أوّل قائد روماني يتجرّأ على الإبحار نحو قرطاج والنزول في البرّ الأفريقي، وهو بذلك يتأسّى بالقائد الإغريقي أقاثوكليس[12]. وتجمّع جيش الحملة الرومانية المتكوّن من 40000 عسكري في هضبة إكنوم (Ecnome) ثمّ أبحر في أسطول الحملة المتكوّن من 330 سفينة[13] بقيادة القنصلين ريغولوس وزميله مانليوس (Manlius). وما كاد يبحر من السواحل الصقلية حتّى وجد في مواجهته الأسطول القرطاجي ، ودارت المعركة البحرية هناك ، وتشير المصادر وهي إغريقية لاتينية إلى أنّ الرومان انتصروا[14]، وأنّ أبواب البحر الليبي ستنفتح أمامهم بعد هذا الانتصار وسوف يزدادون جرأة ، ولإتمام الحبكة ذكرت باقتضاب أنّ القائد القرطاجي حانون طلب الصلح لكسب الوقت فأجابه القنصلان بالرفض ، ولكن حديث هذه المصادر عن الأضرار التي لحقت بسفن الرومان والتي فرضت عليهم العودة إلى مسين (Messine) لإصلاحها في محترفاتها[15] يجعلنا نتساءل عن حقيقة هذا الانتصار، خاصّة وأنّ مسين بعيدة وفي أقصى الجهة الشمالية من صقلية ممّا يجعلنا اليوم نراجع ما يرد في هذه المصادر التي تكتب بأسلوب ملحمي يمجّد عبقرية روما ويشيد بانتصاراتها، وعليه ألا يحقّ لنا أن نستنتج بأنّ النصر في هذه المعركة كان لقرطاج؟ وأنّ الأسطول الروماني اندحر ورجع إلى قواعده الخلفية البعيدة ؟ (أنظر الخريطة ش1)، خاصّة وأنّ نصوص هذه المصادر الإغريقية واللاتينية

---

12 أقاثوكليس طاغية ومغامر حربي من إغريق صقلية

13 - Polybe, I, 29-36.

14 -Orose, IV, 8, 6.

15 هي عبارة فلتت من زونارا ، ولعلّه أكثر موضوعية ، أنظر : -Zonaras, VIII, 12, 390

ضُبطت في شكلها النهائي خلال العهد الإمبراطوري عندما أصبحت روما سيّدة العالم . في تلك الأجواء كان لا يمكن تدوين ما ينتقص من عظمة روما وتفوّقها "الأزلي"[16].

ليس لدينا غير المصادر الإغريقية واللاتينية، وهي تتحدّث عن إقلاع الأسطول الروماني باتجاه رأس هرمس (Cap d'Hermès) في أقصى شمال رأس بونة، أين ستتجمّع كلّ قطع أسطولهم، ولكن ديودور يذكر أنّ أسطولا رومانيا من 30 سفينة اقترب من الساحل الإفريقي فضربته عاصفة أدّت إلى إغراقه وكان سهلا على القرطاجيين أن يستولوا عليه[17]، وهو الحادث الذي لم يهتمّ به مؤرّخو الحروب البونية المحدثون، وهذا مؤشّر على تفاصيل يكون النساخ قد حذفوها، لأنّها لا تليق بروما العظيمة، ويواصل هؤلاء المؤرّخون تتبّع وقائع الحملة الرومانية وأنّها سارت بمحاذاة ساحل رأس بونة حتّى وصلت ساحل اقليبية (Clupea ou Aspis) حيث تمّ الإنزال والاستيلاء على المدينة التي اتخذوها مقرّا لقيادتهم الحربية ، فمنها يمكن أن يظلّوا على اتصال بصقلية ولا تنقطع عنهم المؤن من هناك، ولا ريب أنّهم كانوا على علم بأنّ أقاثوكليس من قبلهم كان قد احتلّ المدينة واتخذها مقرّا لجنده، مع أنّ زونارا وفلوروس على الخصوص يذكران أنّ سكّان المدينة خرجوا منها وتركوها خالية[18]، فهل كان ذلك لعدم توفّر

16 حسب اقزال المصدر الأساسي لبوليب فيما يتعلّق بالحرب البونية الأولى هو فابيوس بيكتور وفيلينوس هذا الأخير كان الأعلم بوقائع هذه الحرب وخاصّة الطرف القرطاجي ، ويمكن اعتباره المصدر الأساسي لكلّ من جاء بعده ، ولكن لا نملك الدليل عن صحة اقتباسهم عنه بأمانة ، وهذا يوافق نظرتنا للموضوع، أنظر:

17 Gsell (S.), H.A.A.N., III, p.79, Note N° 1.
- Diodore de Sicile, XXIII, 11

18 - Zonaras, VIII, 12, p. 390. ; Florus, I, 18,19 .

حامية عسكرية تذود عنها، أم أنّهم قاوموا وكانت إمكانياتهم الدفاعية صغيرة فانسحبوا؟ ولكن أين كان ذلك الانسحاب– إن وقع – والأرياف المجاورة ستكون أيضا محلّ نهب ودمار من قبل الغزاة الرومان، فهل التجأوا إلى المملكة الماسيلية ؟ وتحصّنوا بإحدى قلاعها ؟ لأنّ مؤرّخا إغريقيا يذكر أنّ ريغولوس أرسل جيشا إلى إحدى القلاع الماسيلية لاحتلالها دون ذكر السبب.

اكتسح الغزاة الرومان الأرياف المجاورة وجمعوا من الغنائم ما لا يعدّ ولا يحصى، ويفهم من المصادر أن قرطاج حاولت تحاشي المواجهة الحربية مع هذا الجيش . وإذا كان ذلك صحيحا فكأنّها تطلق يده في البلاد .وبالفعل قام جيش ريغولوس باكتساح أرياف المنطقة ونهب قصور الطبقة الأرستقراطية القرطاجية بل وكلّ ما يمتلك السكّان في تلك الأرياف الآمنة ، وأسَر 20000 من العزّل الذين كانوا يباشرون أعمالهم الفلاحية ولا شأن لهم بالحرب التي تدور منذ سنوات بين روما وقرطاج، وواصل توغّله في البلاد فاستولى على المدن الواقعة في طريقه نحو العاصمة البونية وهي موستي (Musti) ، أدين (Adyn) وتونس (Tunès) وهي كلّها في الإقليم القرطاجي[19]، بل إنّ مؤرّخا مثل أوروس يذكر أنّ ريقولوس دمّر في طريقه

19 لم يكتف الرومان بنهب الإقليم البوني بل وجّهوا عدوانهم نحو المملكة الماسيلية المجاورة، فهذا نصّ لمؤرّخ إغريقي هو هيسيان يذكر أنّ ريغولوس كلّف أحد ضبّاطه وهو المسمّى كالبورنيوس كراسوس بالاستيلاء على قلعة حصينة ماسيلية تدعى قارايتيون (Garaition) ولكنّه قبض عليه وأسر وكان سيقدّم قربانا للإله أمون لولا تدخّل بيسالتيا (Bisaltia) ابنة الملك،أنظر : - Hésianax, Frag. Hist. Graec. III, p. 70, N° 11. ؛ وحسب غابريال كامبس فإنّ أهمّية هذه الرواية الواردة في هذا المصدر تكمن في أنّها تسجّل وجود المملكة الماسيلية خلال منتصف القرن الثالث ق.م. ، أنظر :

300 قلعة، وأصبح الجيش الروماني على مشارف قرطاج، والحال أنّ عدم الاكتراث الذي يطبع سياسة الأوليغارشية التجارية الحاكمة في قرطاج دليل على حماقة كبيرة، ستجرّ خلفها ويلات لا قبل للبلاد بها، فقد كان من الواجب أن يتعلّم أولئك الحكّام من حملة أقاثوكليس التي تعتبر حملة ريغولوس نسخة مكرّرة عنها ، وكان من الأوجب على قرطاج أن تنصب حاميات عسكرية في ثغورها وأن تلتزم بحماية رعاياها، لا أن تتزيّن للمواسم التجارية، لأنّ عهد السلم ولّى، والقوّة الرومانية الشرسة والمحترفة لن تهدأ حتّى تنال منها[20] .

اعتبر القنصلان ريغولوس ومانليوس حربهم على العزّل ونهبهم للأرياف انتصارا عظيما ، فأبرقوا إلى مجلس الشيوخ الروماني لنقل بشائر النصر إليه ليشاركهم الفرحة ، وجاء ردّ مجلس الشيوخ بضرورة عودة الأسطول تحت قيادة أحد القنصلين وبقاء القنصل الآخر على رأس الجند ، وكان الأمر كذلك بحيث أبحر القنصل مانليوس على رأس الأسطول ومعه الغنائم والأسرى وترك لزميله القنصل ريغولوس الذي بقي في أفريقيا 40 سفينة وجيشا مكوّنا من 15000 من المشاة و500 من الفرسان[21] ، فهل كان مجلس الشيوخ الروماني يريد الاحتفاظ بموطئ قدم في البرّ الأفريقي وأنّ هذا بمثابة إعلان منه بأنّه على استعداد لمواصَلة الحرب.

-Camps (G.), Massinissa ou les débuts de l'Histoire, Imprimerie officielle, Alger 1961, p. 39.

20 كان يمكن أن يكون عدم التصدّي للحملة الرومانية في شاطئ اقليبية بهدف استدراج الرومان نحو الداخل والإجهاز عليهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل إنّ الرومان وجدوا أنفسهم في شبه نزهة ، وحتّى العناصر الأهلية التي تكون قد تعاملت مع الغزاة الرومان لحماية ممتلكاتها سيتهمها قادة قرطاج بالتواطؤ ، وسينزلون بها أبشع العقوبات.

21 - Polybe, I, 29, 6, 8-9.



(ش 4) حملة ريقولوس ، عبور مضيق صقلية والنزول في البرّ الأفريقي والزحف على قرطاج

1- المواجهة الحربية

كان لا بدّ على الطبقة الحاكمة في المدينة البونية أن تفعل شيئا تنقذ به المدينة من الوقوع في يد الرومان، فانتدبت قائدان لحرب ريغولوس هما أسدروبال ابن حانون وبوسطار،وأمرت بأن يعود هاملكار الذي كان مرابطا بالجيش القرطاجي في هيراكليا مينوا (Héracléa Minoa) بصقلية، على إثر معركة إكنوم البحرية فأبحر في 5000 من المشاة و500 من الفرسان واستلم القيادة إلى جانب زميليه أسدروبال وبوسطار.

كان ريغولوس الذي أصبح بعد رحيل زميله مانليوس المسؤول الوحيد عن الحرب قد انطلق في اكتساح الأرياف ونهبها وحصار القلاع المحصّنة

حتّى وصل مدينة أدين (Adyn) وهي مدينة مهمّة[22]، وكان الجيش القرطاجي قد صمّم على حمايتها، وخطّط لمعركة فاصلة،فعسكر في أعلى الهضاب المطلّة على المعسكر الروماني وهنا ستدور معركة شرسة بين الطرفين، ولعلّ النقد الذي وجّه للطرف القرطاجي هو أنّ اختياره المرتفعات لا يناسب الفرسان والأفيال التي يعوّلون عليها كثيرا في حروبهم، وقد أدرك الرومان غرض خصومهم فلم يمهلوهم، وبادروا بالهجوم على القرطاجيين في مواقعهم قبل أن ينزلوا إلى السهل وتسلّقوا تلك المرتفعات التي ظنّ خصومهم أنّها ستعينهم على الحرب وهاجموهم من جهتين،واستماتت فرق الجند المأجور في الدفاع وأجبرت بعض فرقهم على التراجع ولكن باغتتها الفرق الرومانية من الخلف ففشلت في المقاومة[23]ودبّ الفشل في المعسكر القرطاجي وانسحب الفرسان ومعهم الأفيال إلى السهل وفرّ المشاة الذين لحق بهم الجيش الروماني بعض الوقت وانتهت المعركة بهزيمة الجيش القرطاجي.

والمتتبّع لهذا السرد سيلاحظ بأنّ الطرف القرطاجي يفتقد عنصر المباغتة ولا يهتمّ بمتابعة التحرّكات التي تتمّ في معسكر خصمه،مع أنّ اليقظة لا تفارق العسكري المحترف،وهذا دليل على أنّ الجيش القرطاجي لم يكن جيشا نظاميا دائما بل تمّ جمعه في ظروف استثنائية وزجّ به في الحرب دون دراية أو تدريب .

22 يرجّح أنّها مدينة أوثينا (Uthina) التي احتفظت باسمها الليبي إلى اليوم مع شيء من التحريف وهو وذنة،مع أنّ اغزال متردّد في تأكيد هذه المطابقة ، وتبعد وذنة عن تونس العاصمة جنوبا بـ 25 كلم بمحاذاة أحد روافد واد مليان ، أنظر :

- Cagnat (r.) et autres, Atlas archéologique de Tunisie, Feuille de Oudna N° 48.

23ذكر زونارا أنّ الرومان باغتوا خصومهم ليلا ، أنظر : - Zonaras, VIII, 13, p. 391.

أشادت المصادر بهذا الانتصار واعتبرته ضوءا أخضر للجيش الروماني الذي سيكرّر ما فعله أقاثوكليس وأنّه سيغتني بالغنائم كما يريد، ويذكر أوروس في هذا السياق أنّ ما بين 74 و82 مدينة قد استسلمت لهم[24] ، وسجّلت المصادر الأخرى أضعاف هذا الرقم[25]، وكأنّها تغري الذين تخلّفوا عن الاشتراك في الحملة وتدفع بهم إلى مزيد من الطمع والندم . وبالغ هؤلاء في التحليق في "أجواء النصر" وهم يهيئون لتحويل شخصية ريغولوس إلى أسطورة، فسجّلوا لنا تلك المعركة العظيمة التي خاضها ضدّ ثعبان ضخم على ضفاف باغراداس، استعمل فيها أسلحة فتاكة وانتصر عليه انتصارا "قلّ مثيله" وأرسل جلد الثعبان إلى روما، وظلّ معلّقا هناك طيلة قرن! [26].

عاد القرطاجيون إلى مدينتهم، ولا نعرف عن مصير جندهم شيئا ،خاصّة فرق الجند المأجور. والمرجّح أنّهم دخلوا المدينة وتحصّنوا بأسوارها ، ولكنها ستضيق بسكّانها بعد أن نزح إليها عدد كبير من سكّان الضواحي والأرياف الذين نهبت ممتلكاتهم، وسيؤدّي ذلك إلى قلّة المؤن وارتفاع الأسعار كما يحدث في مثل هذه الظروف عبر التاريخ. ولكن ما هو غريب حقّا هو أنّ ريغولوس الذي فقد الاتصال بصقلية وليس له أسطول تحت يده ، قد أصبح قوّة لا رادع لها وسط شعب يملك كلّ مقوّمات النصر ، فهو

---

24 - Oroe, II, 104, 6.

25 - Appien lib IV; De Viris Illustribus, 40.

26 وهي قصّة رواها توبيرو ودوّنها تيت ليف ، أنظر : Tite Live, I, p. 133. - ؛ وحيث أنّ مؤرّخا آخر ذكر أنّ معركة الثعبان هذه تمّت بالقرب من موستي، وموستي هذه بعيدة عن باغراداس وتقع جنوب غربي دقّة ، وعوض أن يعتبر مؤرّخ من وزن اقزال بأنّ هذا دليل يفنّد وقوع هذه المعركة الاستعراضية ، أيّد ما جاء وأكثر من ذلك تساءل ألا توجد مدينة أخرى بنفس الاسم بجوار باعراداس؟، أنظر : Gsell (S.), H.A.A.N, III, p. 83. -

فوق أرضه وله القدرة على التعبئة المادّية والعسكرية، وقلّة من الغزاة الرومان تعيث فسادا في البلاد وتهدّد أغنى مدينة في عصرها ، وتقيم معسكرها على بعد أميال قليلة منها، إنّه سوء التدبير والانقسام. فقد تعوّدت مدن مثل أوتيكا على المبالغة في ممالأة العدو ضدّ قرطاج كلّما كانت هذه الأخيرة في ظرف حرج، ولعلّ ذلك دليل على ضعف الانسجام بين الجاليات البونية التي ليست لديها كما يبدو فكرة الوطن . فالوطن هو المدينة ولا امتداد له خارج أسوارها، ولعلّ هذه الفكرة البونية ظلّت راسخة في الشمال الأفريقي ودليل على شرخ كبير بين أريافه وحواضره .

في هذه الظروف وجد ريغولوس نفسه مطلق السيادة، فعرض الصلح على قرطاج ولكن بشروط تعجيزية ظنّا منه أنّ حالة الضعف والهوان التي هم عليها ستجعلهم يقبلون شروطه وأنّها فرصة ثمينة لا ينبغي إهمالها، وفي رأي اقزال الذي لا تنقصه المقدرة على مثل هذه الاجتهادات ، واعتمادا على ما جاء في بوليب أنّ ريغولوس كان لا يريد أن يترك شرف إنهاء الحرب لمن يأتي بعده[27] ، مع أنّ مجلس الشيوخ أقرّه في منصبه وأنّ ريغولوس هو الذي أرسل يلتمس من مجلس الشيوخ تعويضه بقائد آخر ومن بين حججه أنّ ملكيته الزراعية في حالة إهمال! [28] .

لقد كانت شروط ريغولوس مهينة ومستفزّة، إلى درجة أنّ مجلس شيوخ قرطاج رفض مناقشتها، ومن هذه الشروط :

- جلاء القرطاجيين عن صقلية وسردينيا .
- إطلاق سراح الأسرى الرومان دون قيد أو شرط.
- افتداء الأسرى القرطاجيين.

---

27 - Polybe, I,

28 Tite Live, Epit. I, XVIII.

- تعويض خسائر روما.
- دفع إتاوة سنوية .
- الالتزام بعدم القيام بإعلان الحرب أو إبرام السلم إلاّ بإذن من روما.
- تجهيز الرومان بخمسين ثلاثية كلّما طلبوا منهم ذلك وأن يكتفوا هم بواحدة فقط.

2- استعانة قرطاج بالخبرة الحربية الإغريقية:

هذه الشروط هي في الواقع حرب على قرطاج أقسى من الحرب ذاتها، لأنّها تريد أن تنال بالسلم المزعوم ما لا يمكن نيله بالحرب بسهولة، وكان لابدّ من التفكير الجدّي في إستراتيجية تعيد الحياة إلى قرطاج التي توشك أن تسقط في يد عدوّ جشع في السلم وحاقد في الحرب. وفي هذا الظرف الحرج ليس أسهل من الحلّ الذي درجت عليه قرطاج وهو الاستعانة بالجند المأجور، والبحث عن كبار خبراء الحروب للاستعانة بهم، وليس أفضل من الخبرة الإغريقية، فاستقدمت أحد الإسبرطيين[29] وهو اكسنتيب (Xanthippe) الذي كان إستراتيجيا ومدرّبا عسكريا ذا كفاءة كبيرة،وهذا الإسبرطي نسبت إليه المصادر شرف الانتصار على الرومان، وهي في الواقع تشيد من خلاله بالحضارة الإغريقية التي ستكون الحضارة الرومانية امتدادا لها، وهذا لا يصيب روما في مقتل حتّى ولو دوّن وقرأته الأجيال لأنّه لن يحبطها، ولأنّ ما هو إغريقي هو روماني أيضا، ولعلّه حسب اقزال

[29] نعتقد أنّ كلمة (Asbertaï) البربرية والمستعملة في عربية شمال أفريقيا بصيغة ازبرطعي بمعنى الذي يجمع بين القوّة البدنية والذكاء مشتقّة من اسم إسبرطي ، وهذا دليل على عبقرية المدرسة الحربية الإسبرطية ، وصيتها الذائع في حوض المتوسّط .

إطراء دسّه مؤرّخ إغريقي في نصّه وأراد به تذكير روما بتفوّق الإغريق وأنّهم المبدعون في السلم والحرب مثلما هم في الفنون والعلوم! [30].

وصل الإستراتيجي الإغريقي ومعه أعداد من الجند المأجور، وحتّى فيلادلف بطليموس II (Philadelphe Ptolémée II) ملك مصر تعاطف مع قرطاج وأرسل إليها عددا من الجند المأجور، واستلم اكسنتيب مهامّه. وتقول المصادر أنّه وبّخ جنرالات قرطاج بعد أن رويت له تفاصيل هزيمة الجيش القرطاجي، ثمّ شرع في تدريب الجند بمن فيهم الذين تحت قيادة الضباط القرطاجيين ، فقد عهد هؤلاء بفرقهم إليه لتدريبها، وبعد أيام من التدريب المتواصل استرجع القرطاجيون الثقة بالنفس، وارتفعت معنوياتهم ، وأعلنوا الاستعداد للحرب قبل نهاية الصيف ، بجيشهم المدرّب وقوامه 12000 من المشاة و4000 من الفرسان و100 فيل. وزحف هذا الجيش ليعسكر بعيدا عن المدينة في مكان سهلي، وهنا تظهر براعة اكسنتيب لأنّ فعالية الأفيال وفرق الفرسان لا تتمّ إلاّ في مجال سهلي ، وبذلك يتدارك الخطأ الذي ارتكبه القادة القرطاجيون في السابق عندما عسكروا في أعلى المرتفعات التي لا تناسب الأفيال خاصّة بل تشلّ حركتها وفعاليتها. ومن الغداة عندما استشار القادة القرطاجيون جندهم في أمر الحرب أجاب هؤلاء بصوت واحد بأنّهم على استعداد للمعركة تحت قيادة اكسنتيب، هذا الأخير أقنع أولئك القادة بأنّ الفرصة مناسبة جدّا لشنّ الحرب[31]، فوافقوا وطلبوا منه ترتيب فرق الجند وتحديد خطّة المعركة فوضع الأفيال في خطّ واحد في الأمام ، وفي الخلف الكتائب البونية وفي الجناح الأيمن عددا من فرق الجند المأجور ، وفي مقدّمة كلّ جناح عددا من الفرسان والمشاة الخفيفة ،

30 - Gsell (S.), H.A.A.N., III, p.85.
31 Diodore, XXIII, 14, 1.

أمّا فرونتان فيشير إلى أنّ اكسنتيب رتّب جيشه بحيث وضع الفرق الخفيفة في الخطوط الأولى أمام المشاة الثقيلة وأمر جند المشاة الخفيفة بأن يرموا نبالهم دفعة واحدة ثمّ يسرعوا باتجاه جناحي العدوّ لتطويقه عندما يكون في اشتباك مع المشاة الثقيلة[32].

ومن جهته زحف ريغولوس بجيشه[33]،وعسكر على بعد 10 اسطادات(Stades) (1800م) عن الجيش القرطاجي[34]، وعندما شاهد استعدادات خصومه لم يجد أمامه سوى خوض المعركة، فرتّب هو الآخر جيشه بحيث وضع في الأمام فرق المشاة الخفيفة المسلّحة بالحراب، وفي الخلف فرق المشاة ووزّع الفرسان على الجناحين وكثّف فرقه في القلب والجناحين بطريقة غير معهودة، ليواجه بها فرق الأفيال، ولعلّ ذلك بسبب الرعب الذي يثيره هذا الحيوان غير المألوف في الحروب الرومانية، أمّا الفرسان فرغم تفوّق الطرف القرطاجي في العدد إلاّ أنّ ذلك لم يكن يثير الكثير من الرعب لأنّ حرب الفرسان مألوفة.

---

32 Frontin, Start. II, 3,10

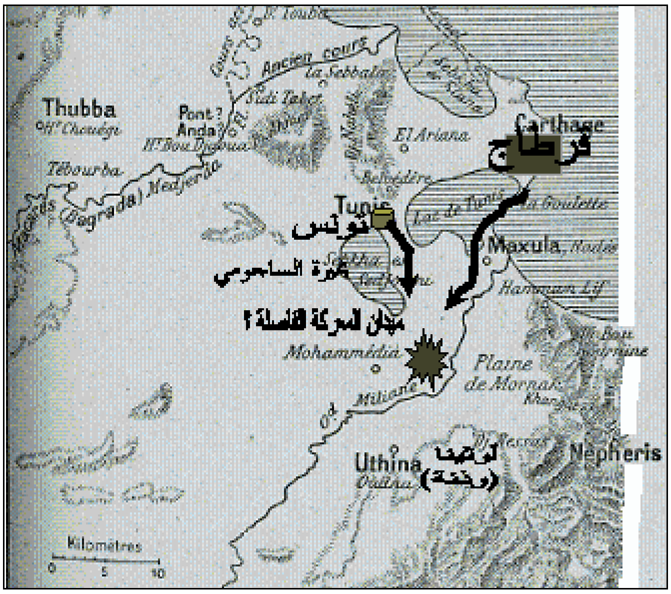
33 كان الجيش الروماني بقيادة ريغولوس مكوّنا في المجموع من 30000 ، Orose, IV, 9, - 3.وهو رقم كبير حسب البعض ، لأنّ عدد الجيش الذي بقي مع ريغولوس في أفريقيا هو 15500 ، فهل أعلن التعبئة العامّة وضمّ إليه العمّال وبحارة الأسطول ، وهل كان عدد هؤلاء مماثلا لعدد الجيش الروماني؟.

34 هناك جدل بين المؤرّخين عن مكان المعركة، ولعلّه لم يكن بين تونس وقرطاج لأنّ المسافة بينهما قليلة ولا تزيد عن أربعة فراسخ، ويقول أبيان أنّ ريغولوس عسكر بجوار بحيرة لعلّها بحيرة السيجومي أو بحيرة اريانة، وأنّ في هجومه على الخصم دار حول البحيرة في جوّ حار والجند مثقل بالأسلحة ، وأنّ نهرا يفصله عن جند قرطاج اضطر لعبوره ظنّا منه أنّه سيرعب اكسنتيب ولكن الإسبرطي خرج من معسكره لملاقاة الجيش الروماني وخلفه جنده المنظّم...أنظر: Appien Lib III

3- المعركة الفاصلة

دارت المعركة في مكان لم يحدّد بدقّة بعد ولا يزال محلّ نقاش، مع أنّ تيسو[35] (Tissot) يرجّح أن تكون قد دارت بجوار بحيرة جريبة التي تقع خلف ساحل خليج الحمامات ، على مقربة من هرقلة (Hergla) ولكن لم يقدّم الدليل على استنتاجه هذا، ويشير زونارا إلى أنّ اكسنتيب باغت الرومان، وأمر فرق الأفيال بالزحف على قلب العدوّ وسحقه، وأمر فرق الفرسان بتطويق جناحي الخصم والهجوم عليهما، فاضطرب حال الجيش الروماني ولم يستطع ردّ الهجوم، وانفرط عقده وانهزم موليا الأدبار، غير أنّ فرق المشاة التي كانت على اليسار وهي تغيّر موقعها أمام زحف الأفيال وجدت نفسها وجها لوجه أمام الجناح الأيمن القرطاجي فهاجمته وأجبرته على الفرار ولحقت به إلى معسكره! ولا تتردّ المصادر الرومانية في عدّ القتلى في صفوف الجيش القرطاجي وتقديم رقم تامّ يحمل أكثر من دلالة هو 800 والغريب أنّ مؤرّخي الفترة الاستعمارية لا يعلّقون على ذلك ويقدّمون – وهم المعروفون بتدقيقهم الشديد عندما يتعلّق الأمر بأفريقيا عموما – عشرات التبريرات والشكوك إلى حدّ الطعن في صحّة الرواية عند هذا المؤرّخ أو ذاك، فما لهم لا يفعلون نفس الشيء في مثل هذه المواقف ! .

35 - Tissot, I, p. 545



(ش 6) المعركة الفاصلة

يقدّم ديودور إشارة موجزة وهي أنّ اكسنتيب أسرع بفرسه نحو الفرقة المنهزمة لزجرها وتشجيعها على العودة إلى القتال[36] ، وعندما زحفت الأفيال يسندها هجوم الفرسان وعادت فرق المشاة القرطاجية إلى الميدان حلّت الكارثة بالجيش الروماني الذي سحق بين أرجل الأفيال وحراب المشاة والفرسان ولوحق المنهزمون الرومان في كلّ اتجاه وقضي عليهم ، وتمّ القبض على القنصل ريغولوس المهزوم ونخبة الفرسان التي معه المتكوّنة

36 إلى حدّ أنّ أحدا من أولئك المشاة ردّ عليه أنّه من السهل أن يصدر أوامره من على صهوة جواده زاجرا آمرا الآخرين بمواجهة الموت وسقط على الأرض... أنظر : Diodore, XXIII, 14, 2. -

من 500جندي ، ولم ينج من الرومان سوى عدد قليل لا يتجاوز الألفين تمكّنوا من الفرار نحو اقليبية واحتموا بها[37] .

يبرّر مؤرّخو الفترة الاستعمارية هذه الهزيمة ويجدون لها الأسباب وكأنّهم يقدّمون – بأسلوب بيداغوجي رصين– درسا لضبّاط تلك الفترة، كقولهم أنّ الرومان اغترّوا بالانتصارات التي حقّقوها، والأمر يعود إلى الثقة المبالغ فيها في تفوّقهم عسكريا وإلى كبريائهم أيضا، مع أنّهم في عدد قليل وفي بلاد معادية لهم بالكامل، بل إنّ البعض قال بالحرف أنّهم شعروا بالهوان فلم يقدموا على طلب النجدة من النوميد مع أنّ هؤلاء أعداء للقرطاجيين مثلهم ! لقد جاء القرطاجيون لطلب الصلح ولكن القنصل اعتدادا بقوّته استخفّ بهم وبالغ في إذلالهم بشروطه التعجيزية لأنّهم تحت رحمته، وأكثر من ذلك اندفع بانتشاء في خوض المعركة في مكان اختاره أعداؤه وجرّوه إليه جرّا وهو سهل يناسب الكرّ والفرّ وزحْف الأفيال، وخصومه متفوّقون في عدد الفرسان وبالأفيال وكان عليه أن يكون حذرا بانتظار تلقّي النجدة من روما[38].

إنّ الانتصارات الرومانية التي يشيد بها مؤرّخو روما قديما وحديثا لم تكن كذلك بقدر ما كانت نهبا وسلبا وحربا بائسة على الفلاّحين العزّل وهم في حقولهم، كما أنّ إهمال القرطاجيين وعدم اكتراثهم كان وراء الكوارث التي حلّت بالبلاد الأفريقية، لأنّ التقوقع داخل مدينتهم وعدم البحث عن السبل الناجعة لإنهاء العداوة المستحكمة بينهم وبين مدن مجاورة مثل أوتيكا ستنجرّ

37 تنسب إليهم المصادر الإغريقية والرومانية شيئا من البطولة ، فتقول أنّهم كانوا يطاردون فرقة قرطاجية منهزمة أمامهم عندما عاود القرطاجيون الهجوم الكاسح ، فشاهدوا الكارثة التي حلّت بجيشهم وكانوا بعيدين عن الميدان ، فانسحبوا إلى اقليبية ... أنظر : Polybe, I, 34, 9. -

38 Gsell(S.),H.A.A.N., III, p.88.

عنه في كلّ مرّة مآسي، وما فعله اكسنتيب جدير بالاعتبار وهو كما نرى حُسْن استغلال الإمكانيات المادّية والبشرية وهي متوفّرة، وكان على جنرالات قرطاج أن يجعلوا من الجيش الذي درّبه الإستراتيجي الإسبرطي نواة لجيش نظامي دائم يقلب سير التاريخ بل يرغمه على السير في صالح قرطاج وأفريقيا عموما، لا أن تكون التعبئة العسكرية حالات استثنائية وأنشطة موسمية تبدأ وتنتهي ويقع الانصراف عنها. لقد احتفلوا بالنصر وقدّموا القرابين للآلهة ولكن الأهمّ هو الاحتفاظ بالقوّة التي صنعت النصر لا الاستغناء عنها وكأنّها ماراثون ينتهي بالاحتفال وتوزيع الأوسمة، لأنّ المصادر تتحدّث عن التخلّي عن اكسنتيب الذي احتضنه ملك مصر البطلمي للاستفادة من خدماته[39].

على العكس من ذلك، اعتبر مؤرّخو روما مغادرة اكسنتيب موقفا "حكيما" منه، لأنّ أجنبيا صنع النصر لا يمكن أن يكون مقبولا في وسط سيشعر دائما بالهوان أمامه... وهو ما يعرّضه لتبعات الأعمال العظيمة وهي الحسد وعواقبه الوخيمة... والحال أنّ الرجلين الإسبرطي اكسنتيب والروماني ريغولوس كانا محلّ تعظيم في قرطاج وروما على التوالي، ولذلك نسجت حولهما روايات وأساطير كثيرة، وحيث أنّ المصادر القرطاجية فقدت ولم يصلنا منها شيء فإنّ ما بقي هو الروايات الرومانية ، وهذه الأخيرة لم تكن غايتها تتعدّى الترويج لغدر قرطاج[40].

---

39 Meltzer, II, P. 304.

40 لم يتردّ الرومان في نسج روايات من وحي حقدهم على قرطاج وعلى الرجل الذي صنع انتصارها الباهر، فروّجوا لحكايات منها أنّ قرطاج كافأت اكسنتيب بسخاء ولكن لم تكن تريد بقاءه ، فقرّرت التخلّص منه ووضعت تحت تصرّفه مركبا نخرا يمكن أن تتسرّب منه المياه فيغرق ، ولكنّه تفطّن للمؤامرة فاستقلّ مركبا آخر وغادر، وتقول روايات أخرى أنّ قرطاج أمرت باللحاق به وإلقائه في البحر، وأخرى تقول أنّ بحارة الثلاثية المكلّفة بنقله إلى بلَده في اليونان تلقّوا أمرا بإغراقه ... وهذه الروايات كلّها بقدر ما هي دليل حقد روماني بشع فهي تشير من طرف خفي إلى الغدر المتأصل لدى القرطاجيين الذي

نجد في المصادر الرومانية وصفا لتنكيل قرطاج بأسراها وأنّها كانت تبالغ في تجويعهم وتربط الواحد منهم مع فيل يرسل صوتا مرعبا أياما قبل الزجّ به في السجن، غير أنّها لا تقدّم تفاصيل الأسباب التي جعلت قرطاج تكلّف القنصل الأسير بمهمّة التفاوض باسمها للصلح وتبادل الأسرى مع روما، فكيف يتحوّل من أسير إلى مفاوض باسمها ؟ وعموما كما يفهَم من هذه المصادر أنّ القنصل رأى من الأجدى له أن يقوم بالمهمّة، ولكن قرطاج اشترطت عليه أن يقسم بأنّه سيعود إليها في حال فشله في المهمّة ، فأطلق سراحه وسافر إلى روما ولكنّه لم يفاوض مجلس الشيوخ على الصلح وتبادل الأسرى وهي المهمّة المكلّف بها بل نصح مجلس الشيوخ بالاستمرار في الحرب، وعاد برّا بقسمه إلى قرطاج،فأيّ جدوى له من القيام بهذه المهمّة التي تحوّل فيها من مفاوض في شأن الصلح إلى محرّض على استمرار الحرب ؟ لا ريب أنّ المصادر أخفت الحقائق ، وحتّى اقزال [41] رغم نزعته استخلص بأنّ هذه الرواية مخترَعة لتبرير تسليم مجلس الشيوخ لأسيرين قرطاجيين لأبناء ريغولوس لتعذيبهما حتّى الموت بعد أن جاءهما في وقت لاحق خبر تعذيب القنصل في قرطاج حتّى الموت[42].

4- تحرير اقليبية :

روّج له الرومان في كلّ كتاباتهم ، وأنّ كلّ من يتعاون مع قرطاج ستغدر به ، وهي كالحملات الإعلامية اليوم التي تستهدف المعنويات بكلّ الوسائل خاصّة الخبيثة منها.

41 Gsell, H.A.A.N., III, p. 90

42 - Aulu-Gelle, VII, 4,4

لا يمكن الاطمئنان على زوال الخطر الروماني دون طرد بقايا الحملة الرومانية من اقليبية التي أصبحت موطئ قدم للعدوان الروماني في كلّ مرّة ، وللقيام بهذه المهمّة المكمّلة للانتصار زحف الجيش القرطاجي نحو المدينة، وتقول المصادر الرومانية على عادتها أنّ الرومان قاوموا مقاومة شرسة رغم قلّة عددهم ولا تقدّم لنا تفاصيل هذه المقاومة[43] ، وكان مجلس الشيوخ الروماني على إثر وصول أخبار هزيمة القنصل وأسْره قد أمر بتجهيز أسطول من 350 مركبا بقيادة القنصلين أيميليوس باولوس (Aemilius paullus) وفولفيوس بايتينوس (Fulvius paetinus) ويكون ذلك الأسطول قد أبحر باتجاه الساحل الأفريقي لإنقاذ من تبقّى من الرومان بمدينة اقليبية ، احتمالا في السنة الموالية للحرب التي أُسر فيها ريغولوس أي 254 ق.م [44] ، وتمكّنوا من نقل الرومان المحاصَرين في اقليبية، ولكن عاصفة بحرية دمّرت الأسطول في عرض البحر قبالة الساحل الجنوبي لصقلية ولم ينج إلاّ القليل، وليست هذه المرّة الأولى التي يتعرّض فيها أسطول روماني لكارثة طبيعية، ومع ذلك لم يتوقّفوا عن إرسال حملاتهم الواحدة تلو الأخرى ، وإذا كان الخطر الروماني قد زال من البرّ الأفريقي وتراجع إلى الجبهة البحرية ولو إلى حين فإنّه لم يزل نهائيا.

5- غزوة هاميلكار ضدّ النوميد :

في المصادر الرومانية إشارة إلى أنّ بعض النوميد واحتمالا المقيمون منهم في المنطقة الحدودية يكونون قد انتهزوا فرصة انشغال القرطاجيين بالحرب للهجوم على الإقليم القرطاجي، ولكن هذه المصادر لا تتحدّث عن تفاصيل هذه "الفرصة"، ولا تقدّم لنا شكل هذا الهجوم ، هل هو هجوم مسلّح

43 - Polybe, I, 36, 6-7.
44 -Ibid. I, 36, 8-9

أم مجرّد سطو على الممتلكات أم هو إطلاق ماشيتهم للرعي في المزارع المملوكة للأرستقراطية التجارية البونية ؟ وأكثر من ذلك هل هو هجوم بأمر من الملك النوميدي وأعوانه أم أنّه عبور لحدود الملكيات الزراعية البونية ؟

إنّ عبارة هجوم النوميد بالمطلق تفيد الانسياح الجماعي للسكان، ولعلّه لا يتجاوز اكتساح الرحّل بمواشيهم للمزارع البونية، ويدخل في النزاع الذي يحدث دائما بين المزارعين والرحّل في كلّ مكان وزمان، فكيف يقابَل هذا العمل من طرف القرطاجيين بتعبئة عسكرية يسخَّر لها كبير جنرالات قرطاج الذي يكرّر ما فعله العدوّ القادم من وراء البحر بالأمس القريب ولكن في حقّ رعاياه ، خاصّة وأنّ المصادر لم تحدّثنا عن جيش ملَكي نوميدي في مواجهة هاميلكار كبير جنرالات قرطاج ! ولذلك نستنتج أنّ النوميد الذين أشارت المصادر إليهم هم رعايا قرطاج من الليبيين داخل الإقليم البوني وليسوا نوميد المملكة النوميدية، وأنّ هاميلكار قاد غزوة على رعاياه العزّل ، لجمع المال الذي يعوّض به خسائر قرطاج في الحرب ولا نعتبرها غزوة انتقامية لأنّ الانتقام يكون في حقّ من أجرموا، والنصوص التاريخية التي بين أيدينا تقول أنّ اكتساح ريقولوس للأرياف القرطاجية كان في صيف سنة 256 ق.م. وأنّ الحرب على ريغولوس والانتصار عليه تمّ في السنة الموالية أي 255 بينما كانت غزوة هاميلكار لرعاياه النوميد في سنة 231 فهل انتظر هاميلكار 24 سنة لتوجيه تهمة التواطؤ مع الرومان والقيام بذلك العمل البشع في حقّ رعاياه، وهو نهب جماعي وتنكيل فظيع في ظروف غامضة، فلم يكتف بصلب أعيان العشائر التي أدانها بل استولى على 20000 رأس من الأبقار وفرض غرامة قدرها ألف وزنة (Talents) فضّية حصّلها كلّها، إلى درجة أنّ بعض الباحثين استنتج بأنّ هذا المبلغ كبير وما

هو في الواقع إلاّ الحلي الفضّية التي انتُزعت من نساء تلك العشائر البائسة[45].

خاتمة

يمكن اعتبار الحروب البونية سلسلة من الأعمال العدوانية التي شنّتها الإمبريالية الرومانية على الشمال الأفريقي القديم في شخص قرطاج، تلك الإمبراطورية العسكرية التي لا حدّ لطموحاتها الاستعمارية في مواجهة أوليغارشية تجارية لم تستطع التخلّص من إيثار المال على جلائل الأعمال فاعتقدت أنّ المال يمكن أن يشتري كلّ شيء حتّى النصر، ولذلك اعتمدت صيغة الجند المأجور في حروبها، عوض دمج رعاياها الأفريقيين الليبيين في المواطَنة القرطاجية لخلق جيش وطني كامل الحقوق ليحارب بمعنويات أعلى ، وعلى العكس من ذلك ظلّت تعتبرهم أجانب وجند مأجور، وأكثر من هذا كانت تقوم بأعمال الغزو والنهب ضدّهم في كلّ مرّة .

في المقابل كانت روما قد اعتمدت صيغة الجند الوطني النظامي المحترف وانفتحت تدريجيا على طبقة العامّة التي أمدّتها بطاقات وخبرات عسكرية كبيرة ، وقبل أن تندفع في حروبها ضدّ قرطاج كانت قد أكملت توحيد شبه الجزيرة الإيطالية وعرفت كيف تطوّر بحريتها بعد أن ضمنت تفوّقها في الحروب البرّية فكانت تحقّق النصر تلو الآخر ، وتحوّل انتصاراتها إلى بطولات أسطورية تغذّي النزعة العسكرية برموز توظّفها في التعبئة المعنوية.

45 بحث غابريال كامبس في الموضوع وهو كما يُفهَم من سياقه لا يؤرّخ للجانب العسكري ولكن للجانب الاقتصادي الاجتماعي ، واستخلص بأنّ السكّان لم يكونوا في مستوى من الرفاهية يسمح لهم بدفع تلك الغرامة وأنّ العقوبة تستهدف سلب مصاغ نسائهم ... أنظر :

- Camps (G.), Massinissa…, p.39.

كان ريغولوس مثالا للقادة الذين حوّلتهم روما إلى رموز أسطورية تظل تثير الاعتزاز وتستنهض الهمم، وفي هذا السياق تقول المصادر التي خطّها مؤرّخون إغريق ورومان أنّ القنصل ريغولوس قائد الحملة على قرطاج ظلّ وفيا لعهد قطعه على نفسه فبقي اسمه خالدا في الآداب وفي الذاكرة الرومانية مرادفا للشجاعة والفضيلة والوفاء المطلق للوعود، وقد روى **تيت ليف** قصّته في الجزء الثامن من كتابه (Ab Urba Condita Libri) وهو الجزء الذي لم يصلنا منه سوى مختصر صغير ، كما ورد ذكر مقتضب له في كتاب شيشرون (De Officiis, II, 99) [46].

وهو أسير كرّر ريغولوس ما قاله في مجلس شيوخ روما لإقناعه بعدم قبول تبادل الأسرى مع القرطاجيين، وقد وضع له القرطاجيون سمّا مفعوله بطيء وغرضهم أن يبقى على قيد الحياة في المدّة التي يتطلّبها التفاوض مع الرومان لعقد الصلح، وعندما تنتهي مهمّته يكون السمّ قد فعل فعلته وأسلمه للهلاك .

يقول توبيرو (Tubero) في تواريخه أنّ ريغولوس عاد إلى قرطاج حيث عُذّب حتّى الموت من قبل القرطاجيين ومورس عليه أبشع تعذيب فقد ألقوا به في دهليز عميق حالك السواد وبعد مدّة طويلة أخرجوه إلى ضوء الشمس الساطع وعرّضوا بصره لأشعّتها الحارقة وأجبروه على فتح عينيه في مقابل أشعّتها ولمّا لم يستطع ذلك فتحوا له الجفون في الأعلى والأسفل.

يروي توديتانوس (Tuditanus) بأنّهم منعوه من النوم مدّة طويلة حتّى فارق الحياة وعند وصول الخبر إلى روما أخرج مجلس شيوخها عددا من الأسرى القرطاجيين وسلّمهم إل أولاد ريغولوس حيث نكّلوا بهم أشنع تنكيل

46 -Diodore de Sicile,XXIII, 11-16.

انتقاما لأبيهم فقد وضعوهم في أقفاص مليئة بمسامير حادّة حتّى هلكوا أرقا وألماً [47].

لا ريب أنّ هذه الروايات مبالَغ فيها وكان الغرض منها صنع أبطال أسطوريين يتأسّى بهم الجيش الروماني وفي ذات الوقت الحطّ من شأن القرطاجيين ووصْمهم بالغدر والوحشية وأنّ الموت أهون من الوقوع في الأسر لديهم، وهذا كلّه يخدم الجيش الروماني مادّيا ومعنويا.

قائمة المصادر والمراجع

مصادر

Appien, *Bellum civile (guerre civile) dans l'Histoire romaine, Trad. Par H. white (Loeb.lass. Libr.) London, 1912-1928.*

Aulu-Gelle, *LES NUITS ATTIQUES, Extraits traduit par Fabrice Edmond Arlea, Collection : "Retour aux grands textes" paris 2006.*

Diodore de Sicile, *Bibliothèque universelle, trad. Par Af. Milot, imprimerie royale, Paris 1834-1837.*

Florus, *ABRÉGÉ DE L'HISTOIRE ROMAINE. Collection des Auteurs latins publiés sous la direction de M. Nisard : Salluste, Jules César, C. Velleius Paterculus et A. Florus. Paris, Firmin Didot, 1865I,*

Frontini (JVLI), *Strategematon, Bibliotheca scriptorvm graecorvm et romanorvm tevbneriana, Libri II, Edidit Gottholdus Gundermann, Lipsiae MDCCCLXXXVIII.*

Hésianax, *Frag. Hist. Graec. Édit. Müller, s.d.*

Paul Orose, *Adversus paganos, éd. K. zangemeister, 1882.*

Polybe, *Histoire Romaine, traduit par Denis Roussel, édition Gallimard, Paris1970.*

[47] -Aulu-Gelle, Nuits attiques, VII, 4.

Tite-Live, Histoire *Romaine, traduit par Verger, Editions Panckoucke, Paris 1930.*
Lhomond (L'Abbé), *De Viris Illustribus. "Les grands hommes de Rome" traduit et présenté par Jacques Gaillard, Arles, Actes Sud, 1995*
Zonaras, *Histoire romaine, traduite sur les originaux grecs par M. Cousin suivant la copie imprimée a Paris chez la veuve De Samien Foucault, imprimeur et libraire ordinaire du Roy et de la ville, MDCLXXXVI*

مراجع

صفر (أحمد) ، مدنية المغرب العربي في التاريخ ، دار بوسلامة للنشر ، تونس 1959 .
Brisson (J. P.), *Carthage ou Rome, éditions Fayard, paris 1973.*
Cagnat (René) et autres, Atlas archéologique de la Tunisie. Paris 1911.
Camps (G.), *Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'Histoire, Imprimerie officielle, Alger 1961.*

Lancel (S.), *Carthage, Cérès éditions, paris 1999.*
Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (H.A.A.N.) Tome III : Histoire militaire de Carthage, éditions Hachette, Paris 1918.
Meltzer, *Geschichte der Karthager, Berlin, 1913.*
Tissot (Ch.), ***Géographie comparée*** *de la province romaine d'Afrique, Paris 1888*